العرب
الخميس 2021/08/05
السنة 44 العدد 12139

مأساة طبيب أسنان في بغداد تكشف عن الوجه السيء للتاريخ

«2003».. رواية سورية تبدأ من العراق حيث رحى التاريخ تطحن البشر

العلاقة بين الروايــة والتاريخ علاقة متداخلة ومعقدة، بين التنافر والتكامل، ولكن لا أحد ينكر تأثير كل منهما في الآخر وفي قراءته وفهمه وإدراكه. فمن خــلال وقائع تاريخية تتخذ الرواية قناعها الحيوي ومن خلال الرواية يمكن كشــف المناطق المخفية وغير المعلنة من التاريخ، جدلية أجاد بناءها الروائي السوري عبدالله مكسور في روايته الأخيرة المعنونة بـ«2003».

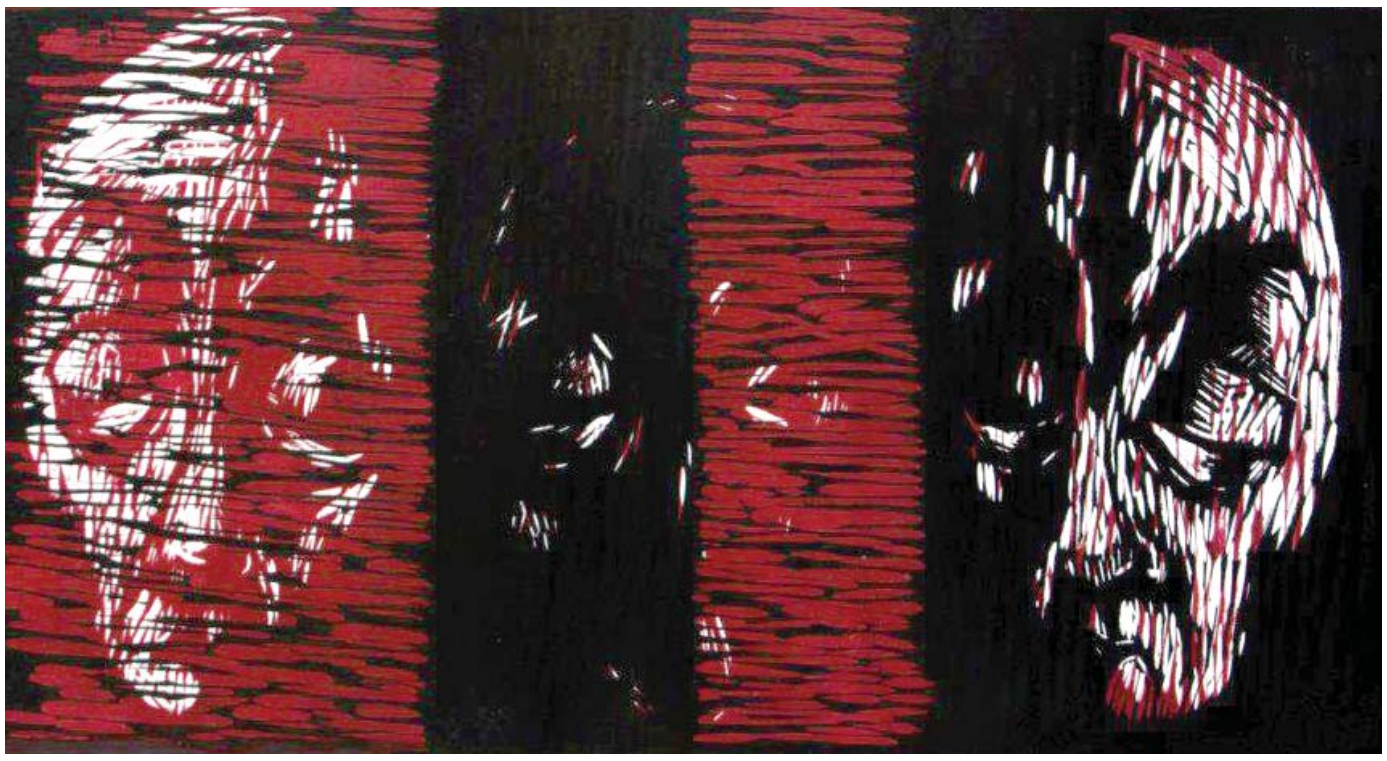

ضحايا التاريخ لا يجدون سبيلا للانعتاق (لوحة للفنانة هبة عيزوق)

هيثم حسين
كاتب سوري

ما يناسب روايته للتاريخ ويسبغ عليها التوصيفات والتسميات التي تتقاطع مع مصالحه ومواقفه.

يتحرّك السوري عبدالله مكسور في روايتــه "2003" في فضــاء روائي أراد له أن ينفتح على أمداء شاسعة، وجغرافيات متباعدة يربط بينها تاريخ مشترك، يتبدّى للوهلة الأولى غرائبيا، لكنه ينكشــف عن تفاصيــل وحيثيــات وأحــداث متعالقة، وكأنها تقتفي آثار الشخصيات في أزمنة وأمكنة مختلفة لتضعها في دائرة الضوء، وترفع بعض الغبن التاريخي عنها.

يختار مكسور لروايته عنوان "2003"، وتــراه باختيــار الرقم كعنــوان، من دون أي إضافــة أو تفســير، يحيــل إلــى عام بعينــه يشــكّل لحظة مفصلية فــي تاريخ المنطقــة برمّتهــا؛ تاريخ احتــلال العراق من قبــل الولايــات المتحــدة وحلفائها – وقــد يقول البعض تحرير، أو ســقوط أو انهيــار – لأنّنا أمام ســرديات منطلقة من مواقف سياســية ومصالحية، وكلّ يختار

الكاتب يمزج بين عدة خيوط ومحاور وتواريخ وجغرافيات، ينتقل من العهد العثماني إلى الواقع المعاصر

شخصيات أسيرة

التاريــخ المحــدد يكون محطــة زمنية بين عــدّة محطّات ســابقة ولاحقــة، وكلّ منهــا تحظى بأهمية كبيرة في تاريخ بطل الرواية وأســرته، لأنّه يكــون محكوما بما تفرضه عليه وقائع تحدّد له مساره وترسم له مصيره إلى حدّ كبير.

يركّــز صاحــب "أيام في بابــا عمرو" على التاريخ الــذي يكون محرّكا للأحداث وخلفية لها في الوقت نفسه، يحوّل التاريخ إلى بطل روائــي غير واضح الملامح، لكنّه يتحكّم بملامح الشــخصيات ويقودها من حــدث إلى آخر، ليشــير بذلك إلــى أنّ أثر التاريخ امتداديّ يسير في خطوط قد تبدو متعرجة لكنها تعود وتؤثر بشــكل مباشر كلّ مرة بحلل معاصرة.

تنهض الرواية، الصادرة عن دار نوفل بيروت 2021، على تداعيات السياسة على البشــر في الماضي والحاضر، وكيف أنها تبقــي الراهن صــورة مكررة بائســة عن مــاض ظُنّ أنه مضى وانتهــى، لكنه يعيد نفسَــه بطريقــة قاســية فــي كلّ دورة من دوراته.

طبيب الأســنان العامل فــي بغداد في عام الســقوط يكون الشــاهد الشهيد على مآسي العراق، ويكون أحد الضحايا الذين تطحنهم رحى المفارقات التي يجد نفســها منخرطــا فيها من دون أن يكون له رأي أو قرار فيها، وتــراه بذلك يمثّل محنة أجيال ضائعة فــي جغرافيات متقاتلــة متلاغية تبحث لنفســها عن موطــئ قدم في معمعة الخراب المتجدّد.

ينتقل الطبيب من سجن إلى آخر، وفي أكثر من بلد عربيّ، وكأنّه منذور للســجون والتيــه، وإن كان يخطط لحياته بعيدا عن ذلك المســتنقع المفجع، لكنه يقع رهينة له، ويظلّ يدفع ضريبــة انتماءاته التاريخية، وتلــك التي يتمّ تلفيقها لــه والانتقام على أساسها منه وممّا يمثّله من ذاكرة حيّة.

يقع بين أيدي الاستخبارات التي تقوم بالقضاء عليه بطريقة وحشــية، وتعذيبه بأســلوب إجرامــيّ، بحيث تســتلب منه إنســانيته، وتلغي وجوده نفســه، بعد أن تلفق له الاتهامات، وتلقيه بين الجهاديين، وتفرض عليه شخصية غريبة عنه، بشكل بعيد عن توجهاته وتكوينه.

يوظّف مكسور في روايته شخصية الرئيس العراقي الراحل صدّام حسين، يستنطقه، يقوده إلى عيادة الطبيب الشابّ الذي يعالج له أسنانه، وكأنّ النخر جزء من الخراب الذي تسبّب به لنفسه وبلاده، ويجعله يشهد لحظة إسقاط تمثاله هناك وسط بغداد من نافذة عيادة الطبيب، من دون أن يكون قادرا على الإقــدام علــى أي فعــل، بل يكــون هاربا متخفيا باحثا عن ملاذ له.

ضحايا التاريخ

يمزج الكاتب بين عدة خيوط ومحاور وتواريــخ وجغرافيات، ينتقــل من العهد العثماني إلى الواقــع المعاصر، وذلك من خلال شــخصية الجد الــذي كان ضابطا عثمانيا، وجد نفســه في الأيــام الأخيرة لســقوط الإمبراطوريــة العثمانيــة فــي القدس، ثــمّ ينقل إلى ألمانيا بعد إصابته، وبينمــا يكون هناك تنهــار الإمبراطورية العثمانية، فينهار معها انتماؤه الرسميّ، ويظلّ عالقا غريبا يبحث عن انتماء، أو يغدو لامنتميا بمعنى الكلمة، ويتحول إلى وسيط لبيع وشراء الأسلحة.

الجد الذي يعاني الويلات يتجسّد كبؤرة حكائية تفتح صندوق التاريخ، تفضحه بمعنى من المعاني، ينقل عدوى التشرّد وأزمة الهوية إلى الحفيد الذي يبقى أسير أزماته كذلك، ولا يستدل إلى درب للنجــاة، ذلك أن كلّ محطة تدفع به إلى أخرى أشــد قســوة، وتوصله إلى حائط مسدود، لا فكاك منه أو فرار.

يقــع الجــد بأيــدي الأميركيــين بعد الحــرب العالميــة الأولــى، في حــين يقع الحفيــد بأيــدي الأميركيــين بعــد عقود بأيــدي الأميركيــين بعد احتــلال العراق وســقوط نظــام صــدام، بحيــث يكــون المصير متشــابها، لكن أشــدّ قســوة في حالــة الحفيد، وذلك في دلالــة رمزية إلى اشتداد ســعير التصفية والقهر والإجرام مع التقدّم بالزمن.

يحــاول الكاتــب اســتخلاص بعض العبــر مــن دروس التاريــخ التــي يقــف عليها في روايته، يدفــع قارئه للبحث عن ســيناريوهات لما كان يمكن أن يكون لو لم تلعب مصادفات معينة أدوارا غرائبية في تحريك الشخصيات ونقلها من مكان لآخر.

ينقــل مكســور أبطاله بــين اللعنات، لعنــات التاريــخ والجغرافيــا، لعنــات السياســة ودهاليزهــا، لعنــات الحروب وكوارثهــا، ويغلــق الدائرة على مأســاة متجددة، حيث الســجن القاهــر والقاتل، حيث استلاب الشخصية والهوية، وحيث الضياع والتدمير.

ينطلق الكاتب بشخصياته ممّا قد يبدو حنينــا ماضويا إلى تفاصيــل ومفارقات، وذلك في مســعاه لبلورة هوية لم تســتدلّ إلى ملامحها بيسر، بحيث ينتقل من حنين إمبراطوري إلى حنين دكتاتوري، وإن كان عبر تقــديم الدكتاتور بلبــوس الضحية، وكأنّ قلــب الأدوار قد يعيد شــيئا مما قُبر إلى غيــر رجعة، أو يحافــظ عليه حيّا في الذاكــر بغية اســتعادته والإشــادة به في معرض ذمّ الواقع المخيب لآماله.

يســتعين مكســور كذلــك بخرائــط بين بعــض الفصول تكشــف عــن تنقلات الشــخصيات، أو يســتعمل ملصقات تبرز صــورا عمــا كان، أو خطابــات مفترضــة منسوبة لشخصيات تاريخية وذلك من باب الإيحاء بواقعية الرواية وحقيقتها، ومثيرا التصــوّر بأنّه إنما يــدوّن وثائق تاريخية وحكايات لشخصيات حقيقية تقاطعت في ما بينهــا حيواتها وتداخلت بشــكل كبير بحيث انتقلت عــدوى الضياع من إحداها إلى أخرى، وسط عالم كان ولا يزال يعاني من انهياراته وحروبه التي لا تنتهي.

> **الرواية تحكي تداعيات السياسة على البشر في الماضي والحاضر وكيف أنها تبقي الراهن صورة مكررة بائسة عن الماضي**

يعكــس الكاتــب وعيــا بتأثيــرات التاريخ على المهمّشين الذين يظنّون أنهم بمنأى عنهــا، وأنّ الأحــداث والمنعطفات الكبــرى لا تغيّــر مصائرهم كأفــراد، في الوقــت الــذي يقعــون ضحاياهــا ولا يجــدون ســبيلا للانعتــاق أو الخــلاص منها.

رواية جزائرية تستعيد الرحلة الساحرة لماتيس إلى طنجة

عمان - يستحضر الروائي الجزائري عبدالقــادر جميعي في روايتــه الأخيرة بعنــوان "ماتيس في طنجة" شــخصية الرســام الفرنســي هنري ماتيــس الذي يعتبر من مؤسسي المدرسة الوحشية في الفن التشكيلي.

تحكــي "ماتيــس في طنجــة"، وهي رواية من الصنف البيوغرافي، عن زيارة هنري ماتيــس (1869 – 1954) إلى طنجة ســنة 1912 رفقة زوجته إميلي تحت وابل مــن المطر، الذي ســبق نــور طنجة الذي سيجده ماتيس دون نظير.

سيكتشــف الفنــان العبقــري ألوان المدينــة ومناظرهــا وســكانها الذين في أغلبيتهــم مغاربة وإســبان ويهود. لكنه ســيجد غيابا كبيــرا للعنصــر الأنثوي الــذي يعتبــره ضروريــا لعملــه الفني. وبين الكثير من النقاد التشــكيليين كيف كان لأسفار ماتيس خصوصا إلى المغرب والجزائر أثر في تطور حساسيته الفنية، حيث شــكل الشرق مصدر إلهام بالنسبة إليه، منــذ معرض الفن الإســلامي الذي أقيم في باريس عام 1903، ولوحة "نساء الجزائر العاصمة" لدو لاكروا، وظهر أثر ذلك في تشكيلته "جواري الحريم" ما بين 1921 و1927 التــي تتوســل بالمنمنمــات، إحدى مفاتيح فنه.

وهــذا العمــل الأدبي هو عبــارة عن رســالة طويلــة إلــى الفنــان، عنوانهــا الأصلــي "زهرة في ســطح البيت"، وهو مقتبــس عــن لوحة لماتيــس، وزهرة هي عاهــرة في طنجــة فرضت نفســها على الخيال الخلّاق.

لوحــة واحدة فقط للفنان التشــكيلي الفرنســي هنري ماتيس "زهرة في سطح البيــت" كانــت كافيــة لجــذب الروائي جميعي إلى عوالم ســردية ثرية، جذبته نحــو امتداداتها الفنية، نحو تســاؤلات طرحهــا كاتــب غيــر متخصــص في فن ماتيس. لكــن اللوحة انتصــرت وأطرت ســردا شــيقا ومفيــدا من الغــلاف إلى الغلاف.

فهل من يعــرف ماتيس يعرف "زهرة في ســطح البيت"، ومن يعرف "زهرة في ســطح البيــت" يعرف ماتيــس؟ هذا هو الانطبــاع الذي ســيخرج به قــارئ هذه الرواية.

يكتــب جميعي إلى ماتيــس "يقظتك وحكمتك جعلاك تحب الفنانين اليابانيين من المرحلة الكبرى الذين، حســب الإخوة غونكــور، كانــوا يغيرون الاســم مرات عديدة في الحياة لحماية حريتهم".

ويضيــف "أنت، الــذي تعتبر الحياة رواية، حســب عبارة أراغــون الجميلة، تعيش وجــودا أردتــه أن يكون ســريا، دون دعايــة ولا تعاظــم. وجــود لم يكن دائما بنفس حُبــور وتناغم الزخرف في الخطوط والأشــكال الواثبة فــي 'ترف'، 'هدوء ولــذة'، أو في 'ســعادة العيش' أو 'رقص".

ويتابــع "كان عليك أحيانــا أن تعبر عــن اســتيائك أمــام أميلي التــي، كما أتخيــل، كانــت تعرف كيف تبقــى رائقة في اللحظــات الصعبة التــي مرت منها علاقتكمــا. أســبوعان قبل غرق ســفينة تيتانيك في جنوب جزيرة تيرنوف، كنت فعــلا غاضبا منها في ميناء طنجة، في نفس الصباح الذي عادت فيه إلى فرنسا، يوم 31 مارس من سنة 1912".

ذكريات يســردها الكاتــب جامعا بين الفنان وبين جده بشــكل سلس، ينتقل من حكاية الفنان وزوجته ورحلته إلى طنجة، ليتطرق إلى تاريخ مدينة وبلد، يقول "من هذا المكان الهادئ والمريح ولدت اللوحات 'زهــرة الأقنثــة'، 'العناقيات'، 'الســعفة'. كما شــرعت، وأنــت في الغرفــة 35 حيث كنت محبوســا، في رسم 'مزهرية إيريس' و'طبيعــة ميتة بالبرتقال' التي اشــتراها منك، في ما بعد، صديقك بيكاسو".

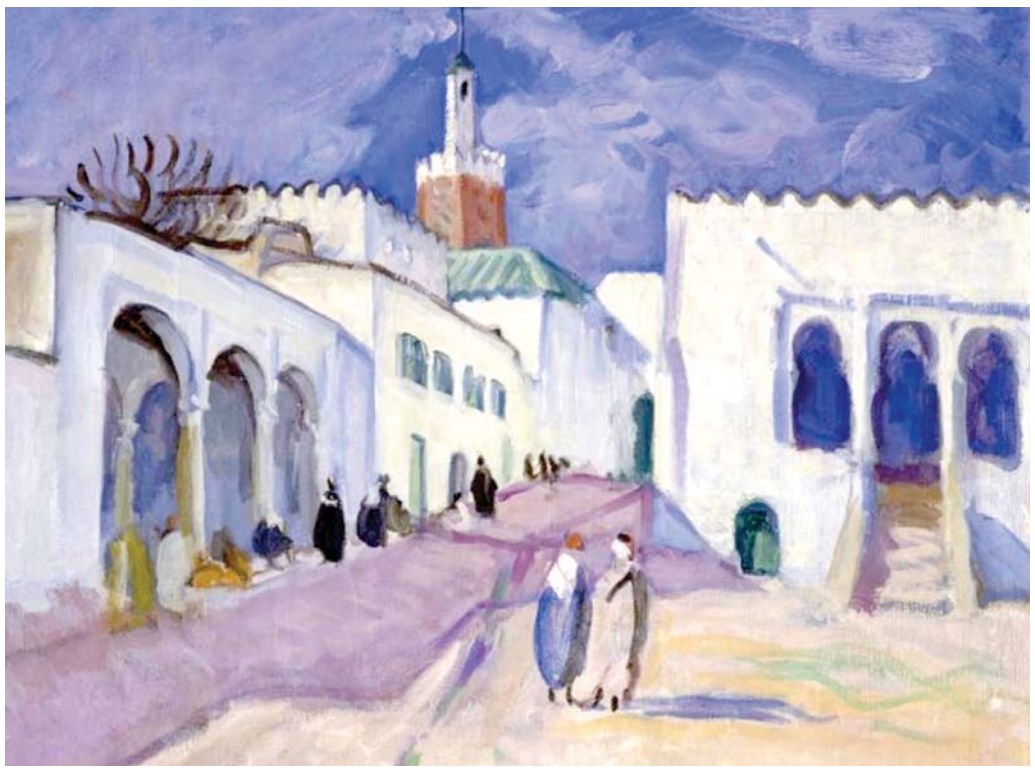

هكذا رأى ماتيس المغرب

الروايــة، الصــادرة عــن دار خطوط وظــلال، مليئة بالتقاطعــات والنقلات من زمن إلى آخر ومن طنجة إلى فرنسا، فيما يكتب جميعي تاريخا شخصيا أيضا عبر شــخصية جده، لكنه مفتــوح على آخرين في تقاطعه معهم، لا تقاطعا حقيقيا وإنما صاغــه الروائي بخياله، ليبــرر تنقله من ماتيس إلى حياة المغاربة.

نجد من بين الشــخصيات المؤثرة في الرواية شــخصية زهرة، المرأة الطنجية، بائعة الهوى، فــي جميع أوضاعها: زهرة جالسة، زهرة واقفة وأمامها حوض سمك صغير ترقص داخله ببطء ثلاث ســمكات حمراء. وكأن الكون كله يوجد هناك.

وإن دأبــت الروايــات العربيــة على اســتحضار شــخصية بائعة الهوى عبر تضخيم خطيئة الجســد وفضح تعالقها الإيهامــي بالأيــروس والمال والســلطة والاعتــراف الســردي الــذي تتخذه هذه الشخصيات نوعا من التطهير والخلاص والتعويــض، فــإن جميعــي يذهب بهذه الشــخصية إلــى ناحيــة أخــرى، هــي الحضــور الجمالــي الأنثــوي، وكأنــه يســتخرجها من لوحات الفنــان ماتيس برقة، ويحافــظ على نظارتها وعناصرها الجماليــة، دون إيهــام بالخطيئــة أو غيره من التمثــلات الخارجة عن عقليات تقليديــة نمطية كما نجد فــي العديد من الأعمال الروائية الأخرى.

> **«ماتيس في طنجة» رواية من الصنف البيوغرافي تحكي عن زيارة هنري ماتيس إلى طنجة وتاريخ المدينة المغربية**